الفصل الأول

بواعث البكاء وصوره الفنية
من منظور البعد الأسطوري

- البكاء... عاطفة إنسانية
- البكاء... وغنائية الشعر
- البكاء على الاطلال
- الحزن على الموتى وبكاؤهم..
- بكاء المشيب...
- مكابدات انسانية باعثة على البكاء..

◻ البكاء... عاطفة إنسانية:

من الحقائق المسلم بها أن شعور الإنسان منذ خلقه الله على وجه هذه الأرض قد فطر على عاطفتي الفرح والحزن، تبعثه على الإحساس بهما مؤثرات لا حصر لها، فضلاً عن استحالة رصد كل ما يتمخض عنهما من انفعالات وردود أفعال، أو استقصاء ما يتفرع عنهما من مسميات أخر ذات صلة بالعاطفة الإنسانية ونوازعها ولاسيما في دلالاتها ومعانيها التي يمكن أن تدرج تحت هاتين العاطفتين لاستغراقهما لها. وإزاء هذه المتاهة العظمى، كان لابد من تحديد مسارنا، واختيار ما يمكن أن نجد صداه... من خلال لمحات ذات مدلول في عملية الإبداع الشعري... وقد أرتأينا أن تكون مشاعر الحزن منطلقاً لنا، وظاهرة (البكاء) تعبيراً عنها، أو انعكاسا لها إلى جانب تضمن (البكاء) دلالات تلك المشاعر حسبما يؤكده المعنى المعجمي للفظة، إذ نطالع في بعض المعجمات، ما نصه: ((البكاء يقصر ويمد... فمن قصره ذهب به إلى معنى الحزن، ومن مده ذهب به إلى معنى الصوت))[1]. وقيل: ((إذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإذا قصرت أردت الدموع وخروجها))[2]، ومثل هذا المعنى ورد في قول المتنخل الهذلي:

ما بال عينك تبكي دمعُها خضلُ كما وَهَى سرِب الأخرات منبزلُ[3]

وقالت الخنساء في البكاء الممدود:

إذا قُبّحَ البكاءُ على قتيلِ رأيت بكاءك الحسن الجميلا[4]

وقيل أيضاً: ((التبكاء بالفتح، كثرة البكاء))، قال الشاعر:

وأفرح عينيَّ تبكاؤه وأحدثُ في السمع مني صمم[5]

وقالوا: ((باكيتُ فلاناً فبيكته، إذا كنت أكثر بكاء منه، وتباكى: تكلف البكاء، والبكئ: كثير البكاء))[6].

❑ البكاء... وغنائية الشعر:

قد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن الشعراء بعامة والجاهليين منهم بخاصة، قد بثوا في تضاعيف أبياتهم ومقطعاتهم وقصائدهم ومطولاتهم (بكائيات) عُدت إحدى قرائن الشعر الغنائي، الذي يكاد يغلب على الشعر الجاهلي وغيره ((من حيث أنه شعر ذاتي يصور نفسية الفرد [الشاعر]، وما تختلجه من عواطف وأحاسيس ويصوره مرحاً أو حزناً))[٧]، إلى جانب تصويره مشاعر مجتمعه وعواطفه وأحاسيسه وتجاربه الحياتية، في حلوها ومرها إذ ((ليس الشعر الجاهلي كله شعراً ذاتياً يدور في أحزان وأفراح فردية يتقوقع فيها صاحبه... بل وجدناه يختلف عن ضروب الشعر الغنائي العالمي، فهو شعر موضوعي يرتبط فيه الشاعر بمصير القبيلة))[٨].

وإن كان يشترك معه في ناحية ((أن الشعراء العرب انفسهم كانوا يغنون فيه... واقترن هذا الغناء عندهم بذكر الأدوات الموسيقية))[٩]. ومن خلال استقرائنا المتواضع لطائفة من الدواوين والمختارات الشعرية الموثقة تبين لنا أن بكاء الشعراء يكاد ينحصر في نطاق بواعث أو مؤثرات قد لا تخرج عن وقفة عند أعتاب أطلال دارسة لأحبة أو لأهل... أو فقد عزيز أثر قتل أو موت حتف أنفه، أو أدبار شباب أو إقبال شيخوخة، أو معاناة أرمضتها هذا التجربة الإنسانية أو تلك.

وقد كان (البكاء) أثر هذه البواعث يمثل علاقة خصوص من عموم لمشاعر الحزن المتمخضة عنها في البعد الفكري من جهة وأثرها -أي البواعث- في تشكيل القالب الفني من حيث التصوير ودقته وبراعته من جهة أخرى.

❑ البكاء على الأطلال:

تشغل لوحات الافتتاح الطللية -كما هو معروف- حيزاً واسعاً من المطولات أو القصائد الجاهلية، فضلاً عن كونها أبرز سمه فنية في البناء المكتمل بلوحاته وموضوعاته الشعرية المتعددة، حتى طغت شهرتها على بقية الافتتاحيات الأخر، منها

الشيب والطيف والشكوى والخمر وغيرها، وقد لا نغالي إذا قلنا إن هذا النوع من الافتتاح كان وما زال مالئ دنيا الشعر الجاهلي، وشاغل النقاد والدارسين (القدماء منهم والمحدثين) الذين ذهبوا في تفسير بواعثها مذاهب شتى بيد أن كلمتهم تكاد تتفق على تقرير أن الباعث الرئيسي في تشكيلها هو ((تذكر الحبيبة الظاعنة عن ديارها من فرط الصبابة))[١٠]. وقد أكد هذا المؤثر أكثر من شاعر - ولاسيما علقمة الفحل الذي أودعه في أوجز لفظ، وأوفى معنى إذ يقول:

هل علمتَ وما استودعتَ مكتومُ أم حبلها إذ نأتكَ اليومَ مصرومُ
أم هل كبيرٌ بكى لم يقضِ عَبرتهُ إثر الأحبة يوم البينِ مشكَومُ[١١]

ومن طبيعة الذكرى أن تثير الحزن أو الأسى، وذلك منطلق قرره النابغة الجعدي في قوله:

تذكرتُ والذكرى تُهّيجُ للفتى ومن حاجة المحزون أنْ يتذكرا[١٢]

وقد عبر الشعراء عن هذا الحزن في الأغلب الأعم، بالبكاء وذرف الدموع، أفراغاً لهذا الشعور، وتنفيساً عنه، حتى غدت الوقفة الطللية مقرونة بالبكاء منهجاً فنياً تقليدياً موروثاً.

أو بكلمة أدق محاكاة لمن ((ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار وبكى وشكا))[١٣]. وذلك ما أعترف به امرؤ القيس في قوله:

عوجاً على الطلل المُحيل لأنّنا نبكي الدّيار كما بكى ابن خذام[١٤]

ليغدو من خلال هذا الاعتراف ((أول من سهل الطريق إليه وأعطاه النسق النهائي))[١٥]. ولا أدل على ذلك من أن ظاهرة البكاء نفسها تكاد تشكل ملمحاً مشتركاً في المعاني التي أتى بها الشعراء في الوقفة الطللية.

وهو ما تمخض عنه استقراؤنا لطائفة غير قليلة من قصائد الشعراء المتقدمين والمتأخرين، المشهورين والمغمورين والمكثرين والمقلين.

وحسبنا في هذا الشأن أن نبتدي بديوان شعر امرئ القيس، ولاسيما معلقته بوصفها أو مراحل نظمه الشعر مع استقراء بقية قصائده الأخر وسنعمد إلى انتقاء أبيات بعينها شكل فيه البكاء حالة وجدانية في إطار صورة فنية ونتجاوز غيرها، أو الاكتفاء بالإشارة إليها، إذا ما افتقدت إلى جهد فني يشار إليه بالبنان!

خلاف بعض أبيات اللوحة نفسها، المتضمنة صورة فنية لمشاعر الحزن المقرونة بالبكاء. منها صورة الشاعر باكياً في إثر ارتحال الحبيبة التي أرمضها تذكره إياه كما في قوله:

كأني غُداةُ البينِ يومَ تحمَّلوا لدى سَمُرات الحيُ ناقفُ حنظل[١٦]

فلم يكن استخدام الشاعر للفظتي ((سمرات الحي)) وهي الأشجار الشوكية في معناها المعجمي و((الحنظل)) وهو نبات مر المذاق في نطاق هذا المعنى أضاً، وصفاً للمكان، أو تشبيهاً ما جرى من دمعه لرحيل الحبيبة بما يسيل من عين ناقف الحنظل إنما قصد ذلك التلاؤم بين المكان ومشاعر الوداع - فإذا كانت الأشجار الشوكية تدل في معطيات رموزها على الجفاف والظمأ والجلد والحنظل في رمزه المعبر عن المرارة، والمذاق غير الشهي فأنّ الوداع نفسه يتضمن في معانية المجازية كل ما يجعل النفس عطشى ومتجرعة مر العذاب لفراق الأحبة ومن هذا المنظور نطالع صورة أخرى مجتزاة من أحد أبيات هذه اللوحة أيضاً قوامها هذه الكلمات المشحونة بعاطفة الحب:

ففاضتْ دموعُ العين مني صبابةً على النحر حتى بلَ دمعيّ مِحملي[١٧]

فالمعنى الظاهري (المعجمي) للبيت لا يشكل شيئاً ذا بال، وهو واضح في ذهن القاصي والداني بيد أننا عندما ندقق النظر في لفظة (محملي) ضمن سياقها الشعري يتراءى لنا معنى أعمق من معناها المعجمي (حمالة السيف)، إذ أراد الشاعر أن يومئ إلى المتلقي أنه يبكي عشقاً ووجداً وهياماً، لا خوراً أو ضعفاً، فلم تكن غايته إبراز

غزار الدموع ووصولها إلى المحمل إنما قصد السيف نفسه بوصفه رمـــزاً للـــشجاعة والفروسية والبطولة ليؤكد انه الفارس العاشق الباكي، وتلك هي القيمة الحقيقيـــة للصورة في بعديها الفكري والفني.

ومن الصور التي تعاور الشعراء على رسمها في الوقفة الطللية، تشبيه دمـــوعهم بما يماثلها في الطبيعة من أمطار منهمرة، أو مياه متدفقة من جداول، أو متسربة من مزادة، وذلك لتجسيم شدة حزنهم، وما ذرفوه من دموع غزيرة حتى يؤثر في نفوس سامعيهم ويخلبوا ألبابهم، وهي صور تدل أيضاً على مدى ما كـــانوا يودعونـــه في لوحاتهم من جهد فني.

ولعل أقدر الصور الشعرية في هذا الشأن ما نطالعه في نونية امـــرئ القـــيس ولا سيما قوله:

لمن طلـــلٌ أبـــصرته فـــشجاني كخطِّ زبور في عَـــسيبِ يمـــانِ
أمنْ ذكر نبهانيةٍ حـــلّ أهلـــها بجزع المـــلا عينـــاك تبتـــدران
فدمعهما ســـكبٌ وســـحَ دِيمـــة ورشَ وتـــو كـــاف وتنـــهملان
كأنهمـــا مزادتـــا متعجـــل فرِيّان لمّـــا تُـــسلقا بـــدهان[١٨]

فالصورة التي رسمها الشاعر تقوم على تداعيات -إن جاز التعبير- بدأ تشكلها برؤية (طلل) أفضت إلى حزن وجب صب دموع شبه تواليها بضروب الأمطار تارة وبـــ(مزادتي ومتعجل) اللتين فرغ من عملهما و لم تدهن مواضع خرزهما ليكـــون ذلك أكثر لسيلانهما تارة أخرى، فالقرينة التي جمعت بين صورة العاشق وصاحب المزادتين - هي الحزن المعبر عنه بسيلان الدموع من عيني الأول، وسيلان الماء مـــن الآخر وهنا تكمن قيمة التشبيه الذي بدا أثره واضحاً في تصوير المعنى، وإمكاناتـــه الفائقة في التعبير عن موقف أو تجربة وجدانية، ويضم ديوان الشعر نونيـــة أخـــرى تكاد تماثل الأولى في التصوير الفني، فضلاً عن اقتراب بقية صور الشعراء مما أبدعـــه

امرؤ القيس، ومما يقيم القناعة بذلك أن النابغة الذبياني هو الآخر يصور لنا مشاعر نفسه الحزينة إزاء ما أحدث الدهر أو ذرى في منازل الأحبة، التي كان لها أثرها في سيلان دموعه وانصبابه. كانصباب الماء من قرية بالية! وحسبنا ما نطالعه في قوله:

أسائلها وقد سفحتْ دموعي كأنَ مغيضُهنَ غروب شنٍ[١٩]

ويقال الشيء نفسه عن (بشر بن خازم) الذي هو الآخر يرسم صورة قوامها تشبيه دموعه الجارية بالماء الذي يسيل من القربة البالية، وذلك في قوله:

ودمعي يوم ذاك غرب شن بجانب شهمة ما تستريح[٢٠]

أما علقمة الفحل فرسم صورة قوامها تشبيه عينيه من كثرة دموعهما لسيلانهما بما يفيض من الدلو العظيمة تسرع بها ناقة، إذ يقول:

فالعين مني كانْ غرب تحط به دهماء حاركها بالقتب محزوم[٢١]

وارتأى زهير بن أبي سلمى أن تكون صورة غزارة دموعه في غربي ناقة ينضح عليها قد قتلت بالعمل حتى ذلت في سقيها النخل كما في قوله:

كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحقا
تمطو الرشا وتجري في ثنايتها من المحالة ثقباً رائداً قلقا[٢٢]

ويعمد الحطيئة - لدى تأمله رسوم الديار - إلى تشبيه دموعه بسيلان الماء من جانب الدلو حين تنزع من البئر المملوءة، والماء يفيض من جوانبها، وينحدر رشاش أبيض نحو الأرض؛ وقد أودع هذه الصورة في هذه الأبيات:

أمن رسم دار مربع ومصيف لعينيك من ماء الشؤون وكيف
رشاش كغربي هاجري كلاهما له داجن بالكرتين عليف
تذكرت فيها الجهل حتى تبادرت دموعي وأصحابي علي وقوف[٢٣]

ويبدو أن بكاء الشعراء لم يقتصر على ذكرى الحبيبة حسب، إنما تعداه إلى الأهل أيضاً، وذلك ما يمكن أن نصطلح على تسميته -الوقفة الطللية غير الغزلية التي

نرى بواعثها في ((حنين الشاعر إلى أهله وانتمائه إليهم، والتعبير عن شعوره بالحرمان من الوطن المكاني... وسط رحلة لا تستقر، وتنتمي حتى غدا البكاء على الطلل بكاء على الحياة نفسها))[٢٤]، وذلك ما نتأمله في الصور ة التي رسمها (عبيد ابن الأبرص) وقد شبه مدامعه التي لا تجف بجدول يسقي مزارع مخروب، وهو يقف عند أعتاب أطلال الأهل وتذكره إياهم، قائلاً:

تذكرت أهلي الصالحين بملحوب فقلبي عليهم جد مغلوب
تذكرهم ما إنّ تجف مدامعي كأن جدول يسقي مزارع مخروب[٢٥]

وعلى غرارها الصورة التي رسمها بشامه بن الغدير، التي أرمضتها وقفته الطللية، يفصح عنها تشبيه دموعه بمياه نهر فياض تحولت جداول تسقي الزرع، إذ يقول:

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شؤون الرأس بالدمع
كعروض فياض على فلج تجري جداوله على الزرع[٢٦]

ولا تختلف صورة لبيد العامري كثيراً عن صورة نظرائه الشعراء فهو أيضاً يعمد إلى إبراز غزارة دموعه بتشبيهها بمياه تسقي الزرع كما في هذه الأبيات:

وقفت بهن حتى قال صحبي جزعت وليس ذلك بالنوال
إذا اروا بها زرعاً وقضباً أمالوها على خور طوال[٢٧]

وما يمكن أن نخلص إليه من ظاهرة بكاء الشعراء على أطلال الأحبة والأهل، أن التناظر والتماثل قائم في المعاني والتراكيب والتشبيهات والصور، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها أن يحلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء، إلى جانب براعتهم في إعادتها وصوغها صوغاً جديداً، فكان كفيلاً بأن يبعد الملل والسأم في نفوس سامعيهم.

□ الحزن على الموتى وبكاؤهم:

إذا كان فراق الأهل والأحبة بسب ارتحالهم من ديار إلى أخرى مدعاة إلى الوقوف عند أعتاب رسومهم الدارسة، وتذكرهم والحنين إليهم وبكائهم... فإن

الشعراء رثوا وبكوا أيضاً من فارق الحياة وطواه الموت (حتف أنفه) أو مصروعاً في ساحة الوغى: ليعبروا من خلال ذلك بالبكاء عن حزنهم وشقائهم وتعاستهم بمصابهم الجلل هذا... ويبدو أن بكاءهم تضمن في تضاعيفه سخطهم من الدهر، بعدما نسب إليه الوثنيون ((ما يكرهون من فرقة أو موت))[٢٨]. وتلك حقيقة يبقى القرآن الكريم أصدق شاهد عليها، فقد جاء على لسان المشاركين في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[٢٩]، فضلاً عن أشعارهم المفصحة عن هذا الزعم،[٣٠] إذ يقول ذو الأصبع العدواني:

أهلكنا الليل والنهار معاً والدهر يعدو مصمماً جذعا[٣١]

كما غدا الدهر في زعمهم الداء والدواء أو العلة والمعلول، فمثلما أبكاهم، فقد بكوا عليه ايضاً، وذلك ما صرح به المرقش الأصغر في قوله:

نبكي على الدهر والدهر الذي أبكاك فالدمع كالشن الهزيم[٣٢]

وما يهمنا في هذا المقام هو تتبع الصور الفنية التي شكل البكاء فيها بعداً فكرياً في رثاء الشعراء، ونواح الشواعر وندبهن، إذا أخذنا في الحسبان أن النسوة أشجى الناس قلوباً عند المصيبة، وأشدهم جزعاً على هالك، لما ركب الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة، وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء[٣٣]. وهو رثاء أقرب ما يكون إلى بكاء ونواح وندب ((وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام))[٣٤]، وقد يستغرق ذلك أياماً أو سنوات معدودات وقد كان لمظاهر حزن النسوة وبكائهن ونواحهن أثرها في تحريض أبناء القبيلة وتوثيبهم على الانتقام والثأر من القاتلين! ويمكن أن نعد الخنساء أبرز شاعرة: ((استوفت كل صور الرثاء وتقاليده الموروثة))[٣٥]، ولاسيما مراثيها في أخويها (معاوية وصخر) التي غلب عليها البكاء، في مطالع قصائدها بخاصة وفي تضاعيفها -بوجه عام- وذلك ما تمخض عن استقرائنا لديوان الشاعرة، إذ كانت تستهل بعض افتتاحيات

قصائدها بـــ((يا عين جودي))[٣٦]، أما بقيتها فكانت تتقاسمهـــا لفظتـــا (البكـــاء والعين) في عبارات ذات اختلاف يسير بينها، وهي بحسب تعاقبها ((يا عين مالك، وما بال عينيك، أعين ألا فأبكي، بكت عيني، أبكي لصخر أهاج لـــك الـــدموع، أبكي عميد الأبطحين، ألا يا عين فاهمري، قذى بعينيك، أعيني هلا تبكيان، يـــا عين فيضي، عين فأبكي، ألا أبكي على صخر، يا عين أبكي، ألا يا عين ويحك، ألا ما لعينيك لا تهجع، هريقي من دموعك، ما بال عينيك))[٣٧].

وتبدو السمات المشتركة في بكائيات الخنساء أنها تقوم على إبراز المعاني بصيغة مباشرة، مع إضفاء اللمحة الفنية المتشكلة في -الأغلب الأعـــم- بإحـــدى أدوات التشبيه من ذلك تصويرها جريان الدمع من العين بالماء الجاري يتخـــذ ســـبيله في مجراه، كما في قولها:

يا عين جودي بدمع منك مدرار جهد العويل كماء الجدول الجاري[٣٨]

أو تصويرها الدمع المسكوب من العين باللؤلؤ المنثـــور صـــفوفاً في سمـــاط يرسل بريقاً:

يا عين جودي بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جال في الأسماط مثقوب[٣٩]

أو تشبيه الدمع المنحدر على الخد بالدر المتدحرج:

يا عين جودي بدمع غير منـــزور مثل الجمان على الخدين محدور[٤٠]

ويمكن أن تشكل من تلك المطالع ملامح لوحة فنية قد تصيح تسميتها بـــ(لوحة البكاء والندب والنواح) ونعزو إلى الخنساء الريادة في بلورتها من النـــاحيتين الفكريـــة والفنية على السواء بعد أن غدت ظاهرة في معظم ما جادت به قريحتها الشعرية[٤١].

وعندما نلتفت إلى مراثي الشعراء، تتأكد لنا حقيقـــة أن ظـــاهرة البكـــاء في تضاعيفها تشكل استثناء، وذلك بسبب أن الرجل (الشاعر) كان يتجلد في مصابه، ويعبر عن أحزانه بأساليب شتى من جهة، ومن جهة أخـــرى، أن رثـــاء الـــشعراء

للفرسان القتلى، وصف بأنه في معظمه ((تهديد للقاتل وعزم على الانتقام منه، أكثر مما هو بكاء على القتيل))[٤٢] بيد أن الشعراء لجأوا إلى صيغة تعبيرية تفصح عن حزنهم ورغبتهم في البكاء بأسلوب غير مباشر من ذلك اعتماد بعضهم ظاهرة الحوار الشعري مع المرأة التي تبدو محرضة على البكاء نحو ما نطالعه في مرثية (دريد ابن الصمة) الرائية لأخيه (عبد الله)، المتضمنة محاورة مع امرأته، وهي تعرض عليه البكاء على أخيه، وإجابته لها أنه يستحق البكاء، وان كان قد جبل على الصبر مع تساؤله إلى من يصرف البكاء، أيبكي أخاه أو قتيل أبي بكر، وذلك ما نتأمله في هذين البيتين:

تقول ألا تبكي أخاك وقد أرى ... مكان البكا لكن بنيت على الصبر
فقلت أعبد الله أبكي أم الذي ... له الجدث الأعلى قتيل أبي بكر[٤٣]

وفي محاورة أخرى، نجد سخرية الشاعر (حزاز بن عمرو) من بكاء امرأته على البكر الشاب من الإبل، جهلاً منها، وحضه إياها على البكاء بالدموع الغزار على الفرسان المصروعين، ليعبر من خلالها عن حزنة إزاءهم وبكائه الضمني عليهم فنطالع في هذا الشأن قوله:

تبكي على بكر شربت به ... سفها تبكيها على بكر
هلا على زيد الفوارس زيد ... اللات أو هلاّ على عمرو
تبكين لارفات دموعك أو ... هلاّ على سلفي بني نصر[٤٤]

ولعل تصوير الشاعر مظاهر حزن النسوة مقروناً بآهاتهن وأناتهم وعويلهن ودموعهن، إفراغ لما كان يجيش في نفسه من حزن، ورغبة في مشاركته عزائهن، ولولا الحياء الذي يحول دون ذلك فيكتفي بالتعبير عنها في فنه الشعري.

من ذلك ما نطالعه في نونية المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثا كليب، وقد احتوتها صورتان أحداهما (بصرية)، تبدو فيها النسوة ممزقات ثيابهن، ناثرات

شعورهن، لاطمات الخدود، والأخرى (سمعية) نتلمس من خلالها النواح والعويل والبكاء المنطلق من أجوافهن كما في هذه الأبيات:

فخرجن حين ثوى كليب حسراً ... مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلاً ... إذ حان مصرعه من الأكفان
يخمشن من أدم الخدود حواسرا ... من بعده ويعدن بالأزمان
متسلبات نكدهن وقد روى ... أجوافهن بحرقة وروانى[٤٥]

وقد صور لنا أن مصرعه أبكى في تعبير مجازي حتى ((بيض الصفائح)) و((القنا)) و((الخيل)) و لم يتمالك نفسه إزاء ذلك كله ألا أن يبكيه هو أيضاً، ويشرك صارمه وسنانه في هذا البكاء أيضاً، إذ يقول:

فلأبكين عليه حتى لابكا ... وليبكينه صارمي وسناني[٤٦]

ونظير هذه الصورة، ما نطالعه في رائية (الربيع بن زياد العبسي) التي يرثي فيها (مالك بن زهير)، ولا سيما قوله:

من كان مسروراً بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبنه ... يلطمن أوجههن بالأسحار
يضربن حر وجوههن على فتى ... عف الشمائل طيب الأخبار[٤٧]

ورائية لبيد العامري، التي هي الأخرى تصور لنا شعائر النسوة في الحزن، كما في قوله:

فَلَمْ أر يوماً أكثر باكياً ... وحسناء عن طرف مجور
تبل خموش الوجه كل كريمة ... عوان وبكر تحت قر مخدر[٤٨]

وفي بعض صور الرثاء يقترن البكاء باحتلاب صور الاستسقاء، ولا تفسر هذه لظاهرة من باب تشبيه الشعراء بانهمار الدموع بالأمطار، للتعبير عن مشاعر الحزن في إطار مادي محسوي فقط، إنما تتضمن بعداً أسطورياً»، إذا أخذنا في الحسبان

المعتقد الجاهلي الزاعم أن (آلهة السماء أو المطر) تشاطرهم الأحزان على مصرع كل ذي شأن، ولاسيما الأبطال الذين كان ينظر إليهم، أنهم من سلالة الإلهة، أو تجسيدات لقوى خارقة، وما إضفاء صفات التالية والتقديس عليهم، وإقامة الشعائر والطقوس على قبورهم، ألا دليل على امتلاك البطل صفات يرتفع بها عمن حوله من الناس الاعتياديين وتحوله رمزاً مقدساً تحف به الأساطير[٤٩] وهكذا يكون مطر السماء (حزناً وبكاء) في بعده المعنوي أو الغيبي وظواهر الكسوف والخسوف وغيرها رد فعل لغضب الآلهة... والصور التي رسمتها الخنساء في رثاء صخر قد تكون مستوفية لهذه المعتقدات التي تضرب بجذورها في أعماق الدهور الغابرة كما في قولها:

يا عين جودي بالدموع ... على الفتى القَرْمِ الأَغَرْ
فالشمس كاسفة لمهلكه ... وما اتسق القمرُ[٥٠]

وتكاد صور الاستسقاء مع صور البكاء تأخذ نمطاً تقليدياً عند أعتاب الأطلال والقبور، مع تناظر في التعابير المكررة، والتشبيهات المماثلة، في دلالة عميقة ابعد من الدلالة الحسية القريبة، لأنها بمثابة الطقوس أو الشعائر التي تصدر عن وحدة التفكير، ووحدة الحس، وعن روح المجتمع وقيمه الفنية[٥١].

واكتفى بعض الشعراء في وصيته، أن ينعت أو يندب أو يؤبن أو يرثى وهي ألفاظ أربعة - في استقراء أحد الباحثين - مترادفة في معانيها الدالة على ((إعلان مشاعر الحزن والبكاء))[٥٢]، كما في وصية طرفة بن العبد، إذ يقول:

فإن مت فأنعيني بما أنا أهله ... وشقي علي الجيب يا ابنة معبد[٥٣]

وهناك من الشعراء من قرن رثاءه لقومه بالبكاء أو بمعنى أدق كان البكاء هو لغة الرثاء ومفرداته، وصور الحزن المعنوي في أبعادها المحسوسة، وذلك ما نتلمسه في بعض شعر امرئ القيس الذي كان ينشد من عينه أن تصب الدمع صباً لتريح قلباً

مهموماً من صور مصرع ملوك كندة التي كانت باعثاً لـذلك البكـاء لا الرثـاء فحسب إذ يقول:

ألا يـا عـين بكـي لي شـنينا وبكـي لي الملـوك الـذاهبينا
ملوكاً من بني حجر بن عمـرو يـساقون العـشية يقتلونـا
فلم تغـسل جمـاجمهم بغـسل ولكـن بالـدماء مرملينـا
تظـل الطـير عاكفـة علـيهم وتنتزع الحواجب والعيونـا[٥٤]

ونجد شعراء آخرين يدعون الناس إلى البكاء وذرف الدموع عنـد مـوت أو مصرع ذي شأن، أظهار لرزء المصيبة، وعظم الخطب كدعوة أوس بن حجر لدى رثائه فضالة بن كلدة أهل مجالس الشرب من الفتيان للبكاء، في قوله:

ليبكك الشرب والمدامة والـ فتيان طـراً وطـامع طمعـا[٥٥]

ونظير هذه الدعوة، قول لبيد في رثاء النعمان بن المنذر:

ليبك على النعمان شرب وقينـة ومختبطات كالسعالي أرامـل[٥٦]

ولا نغفل موضوع (رثاء النفس) أو (البكاء عليها)، لدى معاناة الشاعر مـن وطأة الأحزان والهموم والاكتئاب، تارة أو الإحساس بدنو الأجل ومفارقة الحيـاة تارة أخرى، ويعمد بعض الشعراء إلى تصوير تخيلي للطقوس التي تمارس بعد موتهم، يتصدرها بكاء النساء ونوائحهن من ذلك ما نطالعه في رائية (الأفوه الأودي) الـتي رثا فيها نفسه قائلاً:

ألا عللاني وأعلما أنـني غـرو وما خلت يشفيني الشقاق ولا الحذر
فنائحة تبكي وللنـوح درسـه وأمر لها يبدو وأمـر لـه يـسر
ومنهن من شقق الخمش وجهها مسلبة قد مس أحشاءها العبر[٥٧]

ولم يكن الشاعر الجاهلي يهتم بإظهار حزنه وجزعه، على فراق الدنيا، وإنمـا كان يهتم بإظهار مكانته أو منـزلته المفصح عنها حزن أهله وعشيرته وأصـحابه وبكاؤهم عليه... كما يقول السمؤل:

يا ليت شعري حين اندب هالكاً ماذا تؤبنني به أنواحي
أيقلن لاتبعد فرب كريهةٍ فرجتها بشجاعة وسماح[٥٨]

❑ بكاء المشيب:

كان الإحساس بإدبار الشباب، وإقبال الشيخوخة، وما سيتبعها من ضعف وسقم وتهافت، باعثاً على تفكير المرء بجريان الزمن، وتناقص الأعمار! وقد ولد هذا الإحساس، وذلك التفكير شعوراً لدى (المشيب أو الداخل في حد الشيب) يغلب عليه الحزن والأسى، اثر وعي بمفارقته (لهو الصبا، ومتع الحياة وبهجتها)... وحين نمضي لأدراك هذا الشعور إدراكاً حسياً، في نتاج بعض الشعراء، فسنجد أن تعبيرهم عنه يتمحور في صور فنية ذات أبعاد نفسية، وقوامها كلمات مشحونة بمكنون النفس الإنسانية، ومعاناتها وحسراتها ولهفتها وهمومها، وتحدد نظرتهم (التشاؤمية) إلى الكون والحياة والموت والناس والمرأة والكهولة في الأغلب الأم وحسبنا أن تكون حالة (البكاء) إحدى قرائن ذلك الحزن على الشباب والجزع من الشيب... بعد أن وضعنا نصب أعيننا الحقيقة التي تقول ((إن العرب ما بكت على شيء ما بكت على الشباب))[٥٩]، وأن كان هذا البكاء يشكل استثناء، لدى الرجال بعامة لالتفاتهم إلى إفراغ أحزانهم بمظاهر شتى، دون تصريح بالبكاء مباشرة! ومن هنا فإننا سنظفر بتجارب شعورية بكائية -إن جاز التعبير- عند طائفة محدودة من الشعراء لعل أمية بن أبي الصلت واحد من هؤلاء الذين عانوا من إعياء الشيخوخة، وكابدوا الهموم وبكوا فراق لهو لحياة، وقرنوا الموت بالهرم، إذ يقول:

باتت همومي تسري طوارقها أكف عيني والدمع سابقها
اقترب الوعد والقلوب إلى الـ لهو وحب الحياة سائقها
من لم يمت غبطة يمت هرماً للموت كأس والمرء ذائقها[٦٠]

ويبدو أن الشيب الذي لاح في رأس هذا الشاعر وذاك كفيلاً لتأمله المأساوي

لأثر الزمن في تحول المرأة عنه، وإعراضها عن سمات الشيخوخة التي أسرعت إليه وأن أيقن أن بكاءه لا طائل منه لأنه لا يرد حبيباً ولا يجدي على صاحبه بخير، وهو شيخ كبير!! وذلك ما نتأمله في تجربة عبيد بن الأبرص القائل:

بل ما بكاء الشيخ في دمنةٍ وقد علاه الوضح الشامل[٦١]

والأعشى وهو يقول:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل ترد سؤالي[٦٢]

ويبدو أن المشيب في صراع دائم مع النفس فهو تارة يعمد إلى إيقاظ عاطفة الحب والشوق والحنين إلى ماضٍ يتخلله الحزن والبكاء، وتارة أخرى يسخر من تشبثه بعهد الشباب الأول، وقد يجد في الجهل عذراً يتكئ عليه، أو مسوغاً لمعاناته، ولنا أن نطالع مثل هذا التصور في قول بشر بن أبي حازم:

فلما أدبروا ذرفت دموعي وجهل من ذوي الشيب البكاء[٦٣]

❑ مكابدات إنسانية باعثة على البكاء:

و لم يقتصر البكاء على ما استعرضناه، إذ نقرأ نصوصاً أخرى تضمنت أبعادها الفكرية حالات حزن مقرونة ببكاء أيقظها الشعور النفسي الذي انتاب الشاعر في موقف آني آتي على خاطره، أو بكلمة أخرى لم يجد بداً من البكاء للتعبير عما يكابده، فها (علباء بن أرقم) يجهش بالبكاء لدى مفارقته الحبيبة (تماضر)، والتحاقها بقومه، بعد أن تأججت في نفسه مشاعر الحنين والشوق واللهفة لرؤيتها واللقاء بها مجدداً، مجسماً لنا ذلك بانهمار دموعه وهي تصب من عين كأنها كحلت بحب قرنفل أو سنبل، قائلاً:

حلت تماضر غربة فاحتلت فلجأ وأهلك باللوى فانحلت

وكأنما في العين حب قرنفل أو سنبلاً كحلت به فانهملت[٦٤]

وقد يرسم لنا الشاعر مكابدات الغير ومعاناتهم المجسمة بالبكاء وذرف الدموع، على نحو ما نطالعه في الصورة التي نقلها امرؤ القيس لمشاعر صاحبه المرافق له في رحلته إلى (القيصر) المفعمة بالحنين والشوق إلى الأهل والعشيرة، وقد أججها مفارقة لهم، وبعد دربه عنهم، كما في قوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا(٦٥)

ونظير ذلك الصورة التي رسمها الشاعر (صخر بن عمرو بن الشريد) لامرأته (سليمى) التي لم تكن دموعها تجف على حاله الذي لا هو بالحي فيرجى ولا بالميت فينسى، فشق ذلك عليه، فقال فيها:

أرى أم صخر ما تجف دموعها وملت سليمى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ومن يغتر بالحدثان
فأي امرئ ساوى بأم حليلة فلآ عاش الا في شقا وهوان(٦٦)

وهذا (النمر بن تولب) ينقل مشاعر زوجته الحزينة المفصح عنها بكاؤها وجزعها من إسرافه وإهلاكه ماله اثر تضيفه فتية، وعقره لهم أربع قلائص، وشرائه لهم زق خمر، وقد لامها على موقفها ذلك في قوله:

قامت تبكي أن سبأت لفتيةٍ زقاً وجابية بعود مقطع
لا تجزعي أن منفساً أهلكته وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي(٦٧)

وما نود أن نخلص إليه أن البكاء إفصاح عن العاطفة الإنسانية المكنونة في أعماق النفس، وهو أيضاً إحدى القرائن التي يتميز بها البشر عن غيرهم من الكائنات الحية.

ومما لاشك فيه أن البكاء لا يحصل دون بواعث أو مؤثرات تستجيب لها النفس الإنسانية، ولا تتجسم إلا في ذرف الدموع لتعبر عن حالة الحزن التي تتملك

المرء في مواقف بعينها في الأغلب الأعم. ولما كان الشاعر إنساناً مرهف الحس، ورقيق العاطفة، وذا خيال جامح، فقد غدا الأقدر في التعبير عما يكابده من آلام ومعاناة، وغدا حزنه وبكاؤه تتويجاً لها، لا في أبعادها الفكرية حسب، إنما في صياغتها الفنية وصورها الشعرية مفصحة عن مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فني ذي حظوظ من الجمال الذي يخلب الألباب، أو يترك في نفس متلقيه المتعة والفائدة والتأثير أو الاستجابة أو التعاطف. ولما شكلت هذه البكائيات -إن جاز التعبير- ظاهرة مطرودة وشبه مطردة في نتاج الشعراء، فقد شجعنا ذلك على إيلائها اهتماماً في هذا البحث، مع رجاء أن يكون قد أوفى حقها -أي البكائيات- من الاستقصاء والتتبع في المحاور التي ارتأيناها.

هوامش الفصل الأول ومصادره:

(١) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر - بيروت ١٩٥٦: بكي.

(٢) المصدر نفسه: بكا.

(٣) ديوان الهذليين، شعر المتنخل الهذلي، القاهرة، ١٩٦٥: ٣٢/٢.

(٤) ديوان الخنساء تحقيق كرم البستاني، دار صادر - بيروت ١٩٦٣: ص١١٩.

(٥) لسان العرب: بكا (والشعر دون عزو).

(٦) المصدر نفسه: بكا.

(٧) العصر الجاهلي: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط العاشرة ١٩٨٢: ص١٩٠.

(٨) تاريخ الأدب العربي: -قبل الإسلام- نوري القيسي وزميلاه، بغداد ١٩٧٩: ص٢٠٥.

(٩) العصر الجاهلي: ص١٩١.

(١٠) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٨٢: ٧٤/١.

(١١) ديوان علقمة الفحل، تحقيق لطفي الصقال، ودرية الخطيب، حلب ١٩٦٩: ص٥٠.

(١٢) شعر النابغة الجعدي، تحقيق عبد العزيز رباح، دمشق ١٩٦٤: ص١٠.

(١٣) الشعر والشعراء: ١/ ٧٤.

(١٤) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: دار لمعارف بمصر ١٩٦٤/ ق١٥/ ١١٤.

(١٥) العصر الجاهلي: ص٢٦٠.

(١٦) ديوان امرئ القيس: ق١/ ص٩.

(١٧) المصدر نفسه: ق١/ص٩.

(١٨) المصدر نفسه: ق٨/ص٨٨.

(١٩) شعر النابغة الذبياني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ١٩٨٥ ٢٣/ ص١٢٥.

(٢٠) ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق عزة حسن، دمشق ١٩٦٠: ق١١/ص٤٩.
(٢١) ديوان علقمة الفحل: ص٥٣.
(٢٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب، القاهرة. ١٩٥٠ ص٣٧-٣٨.
(٢٣) ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة ط الأولى ١٩٨٧: ق٢٧/ ص١٦٦.
(٢٤) تاريخ الأدب العربي -قبل الإسلام-: ص١٦٨-١٦٩.
(٢٥) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصار، مصر. ط الأولى ١٩٥٧: ق٨/ ص٢٤-٢٥.
(٢٦) شعر بشامة بن الغدير، جمع وتحقيق عبد القادر عبد الجليل، مجلة المورد المجلد السادس، العدد الأول، بغداد ١٩٧١: ص١٢٦.
(٢٧) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق د. إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢: ص٧٣ -٧٤.
(٢٨) الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى عبد اللطيف جياووك، بغداد ١٩٧٧: ص٩١.
(٢٩) الجاثية: الآية ٢٤.
(٣٠) الحياة والموت في الشعر الجاهلي: ص٨٩.
(٣١) ديوان ذي الإصبع العدواني، تحقيق عبد الوهاب، العدواني ومحمد فائق الدليمي، الموصل ١٩٧٣: ق١٩/ص٥٥.
(٣٢) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون: مصر ١٩٦٤: ق٥٨/ ص٢٤٩.
(٣٣) العمدة/ ابن رشيق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، ط٤/ ١٩٧٢ ٢/ ص١٥٣.
(٣٤) العصر الجاهلي: ص٢٠٧.
(٣٥) المصدر نفسه: ص٢٠٧.

(٣٦) دراسات في الأدب الجاهلي، د.عادل البياتي، المغرب - الدار البيضاء ١٩٨٦: ص١٧١.

(٣٧) ينظر ديـــوان الخنـــساء: ١٤، ٢٤، ٢١، ٣٠، ٣٥، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٥، ٧٨، ١٠٥، ١٠٩، ١١٣، ١٣٤.

(٣٨) ينظر المصدر نفـــسه: ٧، ١٣، ١٦، ٢٠، ٣١، ٣٤، ٣٨، ٤٣، ٤٥، ٥١، ٥٨، ٦١، ٨٠، ٨٩، ٩٣، ٩٨، ١٠٣، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٣٦، ١٣٩،

(٣٩) المصدر نفسه: ص٧٥.

(٤٠) المصدر نفسه: ص١٤.

(٤١) المصدر نفسه: ص٦٧.

(٤٢) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، بشرى الخطيب، بغداد ١٩٧٧: ص٣.

(٤٣) حماسة أبي تمام، شرح التبريزي، تحقيق محمد عبد القادر سعيد رؤوف، د.ت ٣٤٠/١.

(٤٤) المصدر نفسه: ٤١٨/١.

(٤٥) المهلهل بن ربيعة التغلبي، حياته وشعره. نافع منجل، رسالة ماجستير، آداب المستنصرية، ١٩٨٦، ق٥٥/ ص٣٤٢.

(٤٦) المصدر نفسه: ق٥٥/ص٣٤٥.

(٤٧) حماسة أبي تمام، شرح التبريزي: ١/ ٤١٣.

(٤٨) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ص٥٢.

(٤٩) ينظر: الأسطورة في الشعر العربي - قبل الإسلام. د. أحمد إسماعيل النعيمي، مصر ١٩٩٥: ص١٢٥ وما بعدها.

(٥٠) ديوان الخنساء: ص٦٣.

(٥١) ينظر: المطر في الشعر الجاهلي، أنور أبو سويلم، بـــيروت١٩٨٧: ص١١٣ وما بعدها.

(٥٢) الرثاء في الشعر الجاهلي، وصدر الإسلام: ص٢٩.
(٥٣) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق علي الجندي: ق٤/٦٢.
(٥٤) ديوان امرئ القيس: ق٣٧، ص٣٠٠.
(٥٥) ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت ١٩٦٠: ق٢٦ ص ٥٥.
(٥٦) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ص٢٥٧.
(٥٧) الطرائف الأدبية، تحقيق عبد العزيز الميمنين، بيروت، ١٩٣٧: ص١٢.
(٥٨) ديوان السموال بن عادياء: تحقيق عيسى سابا. بيروت: ص١٦.
(٥٩) المستطرف من كل مستظرف، الابشهيي، بيروت، د.ت:٢/ص٦.
(٦٠) أمية بن أبي الصلت. حياته وشعره. دراسة وتحقيق بهجة عبد الغفور الحديثي، بغداد ١٩٧٥: ق٦٨/ ص٢٣٧.
(٦١) ديوان عبيد بن الأبرص الأسدي: ق٢٩/ص٩٨.
(٦٢) ديوان الأعشى، تحقيق محمد محمد حسين، مصر ١٩٥١، ق١/ص١٠.
(٦٣) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي: ق١/ص٢.؟
(٦٤) الأصمعيات، الأصمعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون مصر، ط الرابعة ١٩٧٦: ق٥٦/ص١٦١.
(٦٥) ديوان امرئ القيس: ق٤/ ص٦٥-٦٦.
(٦٦) الأصمعيات: ق٤٧/ ص١٤٦.
(٦٧) شعر النمر بن تولب، صنعة د.نوري القيسي، بغداد ١٩٦٩: ص٧٢.